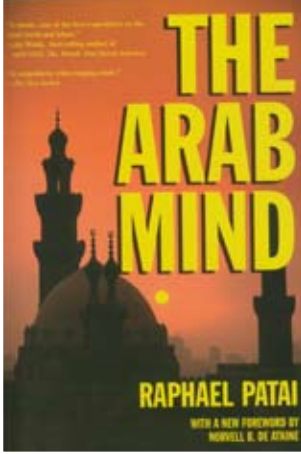


العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس



الفصل الثاني

المظهر الجماعي للعقل

1. حول مصطلح «العقل»

بما أننا تناولنا بالبحث في الفصل السابق مصطلح «العربي» فيجب أن نوضح ما نقصده بالكلمة الثانية من عنوان هذا الكتاب: «العقل». وفي الواقع، قد يتساءل البعض بشكل عام، عما هو المقصود بـ «عقل» أية مجموعة سكانية بشرية، كالأمة مثلاً؟ هل من المشروع بشكل عام الحديث عن «عقل» مجموعة بشرية؟ أليس «العقل» هو أكثر الأجزاء مساساً بشخصية الإنسان، ويحدد فرادته من عدمها؟

للبدء في مناقشة هذا الموضوع يجب الاعتراف بأن أية مقولة حول عقل جماعة ما هو نوع من المفاهيم المجردة. فمن المؤكد أنه توجد عقول فردية فقط (نفس، شخصية، ذات)، لكن وبنفس الطريقة، توجد أجسام فردية فقط. ومع ذلك فإننا معتادون على التكلم عن «الجسم البشري» وأن نتلقى أنباء عن اكتشافات جديدة تتعلق بخصائص غير معروفة سابقاً عن «الجسم البشري».

إن المفهوم المجرد الذي نجازف بالخوض فيه -سواء أكان حول العقل أم الجسم البشري- يمكن الوصول إليه عن طريق عمليات تعميمية. عندما نقول بأن الدليل الرأسي (وهو عرض الرأس مقسوماً على طولته ومضروباً بـ 100) للبدو العرب يتفاوت ما بين (72-75)، فإننا نلجأ إلى اختزال لفظي، والتوضيح الكامل الذي يمرر هذا القول هو أنه: على أساس القياسات المأخوذة لعرض وطول رؤوس ألف شخص من البدو العرب مثلاً، يبدو أنه من الممكن للمرء أن يصدر تعميماً يؤكد بأن الدليل الرأسي للبدو العرب يتفاوت عموماً ما بين (72-75). وعلى أساس هذا التعميم يمكن للمرء في المقابل أن يقول بأن «البدو

العقل العربي

الفصل الثاني: المظهر الجماعي للعقل

العرب» (والذي هو في الأصل مفهوم مجرد) يتصفون برؤوس مستطيلة. وبالمثل: عندما يجازف المرء بإعطاء رأي حول صفة عقلية محددة لأي جماعة بشرية فإنه يقوم بأمرين معا: التعميم والتجريد.

عندما نقرأ كتابات مختصي علم النفس الاجتماعي وعلم الانثروبولوجيا من ذوي التوجهات النفسية، فإننا نادرا ما نواجه تعابير مثل: «العقل الجمعي»، و«عقل الأمة»، و«العقل العرقي» وما أشبهه، فهم يفضلون استخدام مصطلحات بديلة أخرى كـ «الذات» أو «الشخصية»، وفي دراساتهم يناقشون العناصر المشتركة التي تتبدى في ذوات (أو شخصيات) الأفراد الذين يشكلون جزءا من الوسط الاجتماعي المدروس.

إن إحدى المحاولات المبكرة لبحث مشكلة الفرد وخلفيته الاجتماعية والثقافية قام بها مختص علم الانثروبولوجيا رالف لينتون Ralph Linton ومختص علم النفس ابرام كاردنير Abram Kardiner. ويستند مفهوم «الأنماط الرئيسية للشخصية» الذي طوّراه إلى المسلمات الأساسية التالية:

1. الخبرات المبكرة للفرد تمارس أثرا مستمرا على شخصيته، وبالخصوص على أنظمة تكوين الشخصية لديه.
2. تلك الخبرات تميل حين تشابهها إلى إنتاج بنى شخصية متشابهة عند الأفراد الذين يتعرضون لها.
3. التقنيات التي يوظفها أعضاء مجتمع ما في رعاية وتنشئة أطفالهم تحمل طابع الثقافة السائدة وتميل لأن تكون متشابهة - إن لم تكن متطابقة - ضمن عدد كبير من الأسر في المجتمع.
4. التقنيات التي تحمل طابع الثقافة السائدة والتي تستخدم في رعاية وتنشئة الأطفال تختلف من مجتمع لآخر.

العقل العربي

الفصل الثاني: المظهر الجماعي للعقل

إذا كانت هذه المسلمات صحيحة، وهي تبدو بأنها مدعومة بالكثير من الشواهد، فإن ذلك يستدعي:

1. أن أفراد أي مجتمع موضع للدراسة سيكون لهم الكثير من مكونات الخبرة المبكرة المشتركة.

2. أنه نتيجة لذلك فسوف تكون لهم الكثير من مكونات الشخصية المشتركة.

3. أنه نظرا لاختلاف الخبرة المبكرة للأفراد من مجتمع لآخر فإن القوانين الناظمة للشخصية تختلف كذلك أيضا.

إن نمط «الشخصية الأساسية» الخاص بأي مجتمع هو بنية الشخصية التي تشاركها الكتلة البشرية المكونة من أعضاء المجتمع كنتيجة للخبرات المبكرة المشتركة. ولا يتطابق ذلك مع الشخصية الإجمالية للفرد بل مع أنظمة تكوين الشخصية لديه والتي تعتبر عنصرا أساسيا في تكوين بنية شخصية الفرد. وهكذا فإن نمط الشخصية الأساسية قد ينعكس على شكل الكثير من الأنماط المختلفة للشخصية.

على الرغم من الاحتياط الذي روعي في صياغة العبارة السابقة فإنه بعد مرور عدة سنوات على نشرها، وجد فريق آخر من العاملين في مجال الأنثروبولوجيا وعلم النفس، وهم كلايد كلوكون Clyde Kluckhohn وهنري موراي Henry Murray، أنه من الضروري التنبيه إلى أن «قابلية الجماعة لأن يكون لها شخصية مشتركة هي كقابليتها لأن يكون لها أرجل مشتركة». إن ما يمكن أن يكون مشتركا لجماعة ما هو خاصية مميزة، أو مجموعة من الخصائص المميزة، يشير إليها مختصو علم الأنثروبولوجيا وعلم النفس عندما يتكلمون عن الشخصية القومية أو الشخصية النموذجية. وبالمناسبة، فإن مصطلح «نموذجي» نفسه المستعار كما هو من علم الإحصاء (حيث يشير إلى قيمة أو رقم يحدث بتواتر شديد في سلسلة معطاة من الأحداث)، يرينا بأن الشخصية الموصوفة بذلك هي فقط

العقل العربي

الفصل الثاني: المظهر الجماعي للعقل

الشخصية الأهم من الناحية الإحصائية في الجماعة المدروسة. وليس بالضرورة من الأغلبية.

إن المبدأ الأساسي للدراسات المتعلقة بالشخصية النموذجية أو الشخصية القومية يتمثل في ملاحظة أن البشر الذين يترعرعون في بيئة مشتركة يبدو عليهم عامل مشترك قوي في شخصياتهم وذلك بعيدا عن ذكر اختلافاتهم الفردية. ولا يمكن تحاشي كون هذا الأمر هو القضية الرئيسية: فأية بيئة اجتماعية ثقافية تطبع الأفراد الذين يعيشون ضمنها بطابعها الخاص من حيث: القيم، وأنماط السلوك، وما تقبله وتوافق عليه من الأنماط المختلفة لألية الفعل ورد الفعل، بالإضافة إلى رغباتها وأهدافها الموجهة ثقافيا. فخلال مرحلة الطفولة، يقوم هذا العضو الشاب في المجتمع بإدخال التعاليم الأخلاقية ضمن صفاته الذاتية، حيث تزرع فيه بواسطة الأبوين والمربين والمعلمين ورجال الدين وباقي الأشخاص الذين يمتلكون سلطة ما. وفي مرحلة مبكرة تقوم القنوات التي تجري عبرها عملية الزرع السابقة باستثمار إغراء ثواب «الخير» -أي السلوك الملتزم- وعقاب أو التهديد بعقاب «الشر» -أي السلوك العاصي. وبعد عدة سنوات يصبح نظام الثواب والعقاب متضمنا في الصفات الذاتية بما يكفي لإنتاج ما يدعوه فرويد بـ «الأنا العليا»، والتي تستلم زمام القيادة لإكمال ما بدأتها العوامل الخارجية. وبهذه الطريقة يصبح الفرد الذي أجريت له عملية ثقافية واجتماعية ناجحة ممثلا حقيقيا عن بيئته الثقافية والاجتماعية وعضوا في تلك المجموعة المهيمنة عدديا والتي تقوم بتشكيل الشخصية النموذجية. وعليه فإنني سأجازف بتعريف الشخصية القومية بأنها الناتج الإجمالي للحوافز والسجايا والمعتقدات والقيم التي تتشاركها الأغلبية في أية مجموعة بشرية قومية. وبما أن شخصية الأغلبية في أية مجموعة بشرية يمكن أن تشير إلى الشخصية النموذجية، فإنه يبدو بأن الشخصية القومية يمكن أن تكون مساوية للشخصية النموذجية.

وفي الوقت نفسه، يمكن للمرء أن يتفق مع من يصر على التمييز بين الشخصية القومية والشخصية النموذجية، ويفترض بأن المصطلح الأول يجب أن يستعمل لتوصيف مفهوم

العقل العربي

الفصل الثاني: المظهر الجماعي للعقل

أكثر عمومية، بينما يجب استخدام الثاني لتوصيف مجموعة محددة بشكل أضيق. في أية مجموعة سكانية، وخاصة في المجتمعات الصناعية الضخمة المعاصرة وما فيها من تنوع كبير في القطاعات الأساسية، قد نحصل على العديد من بنى الشخصية النموذجية. وهذا يعني بأن الشخصية القومية تتكون من الناتج الإجمالي لبنى الشخصية النموذجية التي تتواجد في مجموعة سكانية قومية.

بعد ذلك تصل القضية إلى التساؤل حول التجانس الثقافي، ففي مجموعة سكانية تتكون من العديد من المجموعات الثقافية المميزة (أو المجموعات العرقية)، تكون كل مجموعة من هذه المجموعات قابلة لتكون هدف دراسة من أجل كشف شخصيتها النموذجية. وعلى سبيل المثال من البيئة العربية: يمكن للمرء أن يجد شخصيتين نموذجيتين مختلفتين في الشمال العربي والجنوب الزنجي في السودان. وفي الحقيقة، فإن الاختلاف بين الشخصيتين النموذجيتين واضح جدا بحيث يصعب على الباحث أن يحاول تصنيفهما تحت العنوان العام للشخصية القومية السودانية.

ومن الجانب الآخر، إذا كانت المجموعة السكانية القومية المدروسة متجانسة تماما مع أخذ التركيب العرقي بعين الاعتبار، فسوف نجد أن أنماط الشخصية النموذجية لأي اثنين أو أكثر من المجموعات الاختبارية سوف تكون متشابهة بما يكفي لضمان استكمال إجراءات الحكم الاستقرائي الناجح منها بحق شخصية المجموعة السكانية القومية بنطاقها الأشمل. وكتقدير اختباري مبدئي لهذا الاعتبار يمكن القول بأن العرب المسلمين، والذين يشكلون الأغلبية العظمى من سكان العالم العربي، إنما هم أقرب حتما إلى هذا النمط المتجانس من البنية الثقافية والذاتية منهم إلى التشكيلة المتباينة المشار إليها في المقطع السابق.

إن قيمة مفهوم الشخصية القومية - مع تعيين حدوده ومؤهلاته - كأداة في أي بحث علمي، وكمحاوله لرسم صورة لمجموعة ثقافية اجتماعية كبيرة، تعززها حقيقة كون

العقل العربي

الفصل الثاني: المظهر الجماعي للعقل

فكرة الشخصية القومية موجودة -ولو بصورة مبهمة- في وعي المجموعات القومية نفسها. ومع انتشار الدعوات القومية في كافة أنحاء العالم، فإن الناس في كل مكان اكتسبوا عادة التفكير بأنفسهم على أنهم أعضاء في أمة ما وأنهم يتشاركون صفات قومية محددة. وحتى الأقليات -في عصرنا الحاضر- أظهرت بوضوح ميلا متناميا نحو الظهور بمظهر المجموعات القومية. وهذا يشكل أمة منفصلة داخل الكيان السياسي الأشمل الذي يعيشون فيه.

2. محاولات عربية لفهم «العقل العربي» و«الشخصية العربية»

بالنسبة للعرب، فإن أفضل المفكرين بالإضافة إلى بعض الناس البسطاء كانوا وما زالوا مراقبين أذكياء لشخصيتهم القومية الإجمالية. وعند قراءة مقدمة ابن خلدون (1332-1406) -والذي كان دون شك أعظم المؤرخين العباقرة في زمانه وأعظم مؤرخ عربي على الإطلاق- يصاب المرء بالذهول مرة تلو أخرى بملاحظاته حول الشخصية العربية، والتي تضاف إلى مكونات الصورة الحقيقية للشخصية القومية العربية كما ترى من وجهة نظر مؤرخ استطاع أن يلتم بسبعة قرون من التاريخ العربي. وتكفي بعض الاقتباسات المختصرة لتعكس الرؤية الخلدونية لبعض مميزات الشخصية العربية القومية. لكن يجب أولا أن ننتبه إلى أن ابن خلدون عندما استعمل مصطلح «العرب» فإنه كان يشير بشكل رئيسي إلى العرب البدو المترحلين، وأنه لم يكن متحررا بشكل كامل من الميل العام للمثقفين نحو تخطئة سكان الأرياف دون الكلام عن تمجيدهم.

تحت عنوان «في أن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط» يشرح ابن خلدون:

«وذلك أنهم بطبيعة التوحش الذي فيهم أهل انتهاب وعيث. ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر. ويفرون إلى منتجعهم بالفقر، ولا يذهبون إلى المزاحفة والمحاربة إلا إذا دفعوا بذلك عن أنفسهم. فكل معقل أو مستصعب عليهم فهم تاركوه إلى ما يسهل عنه، ولا يعرضون له. والقبائل الممتنعة

العقل العربي

الفصل الثاني: المظهر الجماعي للعقل

عليهم بأوعار الجبال بمنجاة من عيئهم وفسادهم. لأنهم لا يتسنمون إليهم الهضاب. ولا يركبون الصعاب ولا يحاولون الخطر. وأما البسائط متى اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة فهي نهب لهم وطعمة لأكلهم. يرددون عليها الغارة والنهب والزحف لسهولتها عليهم. إلى أن يصبح أهلها مغلبين لهم. ثم يتعاورونهم باختلاف الأيدي وانحراف السياسة. إلى أن ينقرض عمرانهم.»

وفي الفصل التالي المعنون بـ «في أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب.» يشرح

ابن خلدون:

«والسبب في ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم فصار لهم خلقا وجبلة وكان عندهم ملذوذ لما فيه من الخروج عن ريقه الحكم وعدم الانقياد للسياسة وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له فغاية الاحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب وذلك مناقض للسكون الذي به العمران.»

وربما يكون مما يلاحظ عند ابن خلدون نباهته بالتوصل إلى سيكولوجية المهزوم التي أسسها من ملاحظته للشعوب التي تغلب عليها العرب والتي بدت على العرب بشكل مماثل أثناء فترة خضوعهم للاستعمار الغربي. وقد وضع للفصل الذي يتناول فيه هذا الموضوع عنوانا هو: «في أن المغلوب مولع أبدا بالافتداء بالغالب في شعاره وزيه وسائر أحواله وعوائده» ثم يضيف ابن خلدون عدة خصائص إضافية إلى الصورة التي يرسمها للشخصية القومية العرقية فالعرب كما يرى:

«لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة. والسبب في ذلك أنهم لخلق التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرئاسة.»

العقل العربي

الفصل الثاني: المظهر الجماعي للعقل

وبينما تشير ملاحظات ابن خلدون بشكل رئيسي إلى البدو العرب. فإن تلميذه تقي الدين أحمد المقريري (1364-1442). أبرز مؤرخي العصر المملوكي. وهو المصري بالأساس. يناقش ببعض التفصيل شخصية مواطنيه. فالشخصية المصرية كما يراها:

«يغلب عليها الاستحالة والتنقل من شيء إلى شيء والدعة والجبن والقنوط والشح وقلة الصبر والرغبة في العلم وسرعة الخوف والحسد والنميمة والكذب والسعي إلى السلطان ودم الناس. وبالجملة فيغلب عليهم الشرور الدنية التي تكون من دناءة الأنفس. وليست هذه الشرور عامة فيهم، ولكنها موجودة في أكثرهم.»

وبعد عدة صفحات يرجع المقريري إلى موضوعه ويضيف عدة صفات أخرى للصورة البائسة التي يرسمها للشخصية المصرية:

«وأما أخلاقهم فالغالب عليها اتباع الشهوات والانهماك في اللذات. والاشتغال بالترهات والتصديق بالمحالات وضعف المرائر والعزيمات. ولهم خبرة بالكيد والمكر. وفيهم بالفطرة قوة عليه وتلطف فيه وهداية إليه. لما في أخلاقهم من الملق والبشاشة التي أربوا فيها على من تقدم وتأخر.»

وفي فقرة ثالثة يعيد المقريري بعض النقاط التي وضعها سابقا ويضيف بأن المصريين يتصفون «بغيباب البصيرة». ويسجل:

«قال لي شيخنا الأستاذ عبدالرحمان بن خلدون رحمه الله تعالى: أهل مصر كأنما فرغوا من الحساب..»

بالإضافة إلى هذا يورد قائمة طويلة من الصفات السلبية. وفي مقابلها يجد صفتين إيجابيتين فقط في الشخصية المصرية وهما: أنهم ليسوا غيورين على زوجاتهم. وأن

العقل العربي

الفصل الثاني: المظهر الجماعي للعقل

الذين يعيشون في البلدات الساحلية يتصفون بطبيعة هادئة. وهو أمر يعزوه المقريزي إلى تأثير رطوبة الجو.

إن التعميمات التي وضعها علماء عرب في العصور الوسطى حول شخصية شعب. كما هو الحال في طروحات ابن خلدون والمقريزي. تقوم على أساس الملاحظة الشخصية وأو مقولات أطلقتها جهات معتبرة. وفي كل الحالات. كانت طروحاتهم عبارة عن محاولات لوصف شخصية جماعة ما من خلال تعداد مميزات الملاحظة واحدة تلو الأخرى. وفي مقابل ذلك تقوم الحكمة العربية التقليدية بشكل عام. كما يعبر عنها عدد لا يحصى من الأمثال والأقوال. بانتقاء ميزة واحدة بعينها وتعتبر صفة مميزة للعرب على الإطلاق. أو لفرع محدد من الشعب العربي. وتمثلهم بتعبير حازم. ويمكن طرح بعض الأمثلة عن هذا التشخيص التقليدي لتكفي كتوضيح لما أوردناه.

من أكثر الأمثال شيوعاً على الألسنة. والتي تستعمل حالياً في العديد من الدول العربية. مثل يقول: «أنا وأخي على ابن عمي. وأنا وابن عمي على الغريب». أو «على العالم». وهذا تعليق صارخ على الصفات العربية لتماسك العائلة والولاءات المتسلسلة. وثمة مثل معاصر في سوريا ولبنان يعلق على الفخر العربي. يقول المثل: «حتى لو كان علي أن أرى دودة الجوع تخرج من فمي. فلن أحط من قدر نفسي» (أي عن طريق طلب المساعدة). وثمة مثل آخر يعكس كره العربي للسلطات: «لا شيء يذل المرء كأن يكون عرضة لسلطة شخص آخر». إن أهمية احترام الذات وحفظ ماء الوجه بالإضافة إلى الاستقلالية. هي أمور تتأكد مرة تلو الأخرى من خلال الأمثال العربية: «مر أمام عدوك وأنت جوعان. ولا تمر أمامه وأنت عريان». «أعمل يوم الأحد وفي العطلات وكن بغنى عن الحاجة إلى أخيك الغني». «مت عزيزاً خير لك من أن تعيش ذليلاً». «اكتفي بقطعة من الكرفس. ولا تذلي نفسك يا روجي». «احلق بفأس ولا منية الناس» وثمة الآلاف من الأمثال في العالم العربي المعاصر والتي تعلق إما على الشخصية العربية كما هي على أرض الواقع. أو تدعو للتمسك -على شكل نصيحة- بالصفات الشخصية التي يتوجب على العربي المثالي أن

العقل العربي

الفصل الثاني: المظهر الجماعي للعقل

يجهد ليمتلكها. إن أي دراسة لهذه الأمثال ستعطينا مشهدا تقليديا مذهلا للشخصية العربية وستعرض لنا النظام القيمي العربي كما يتم تطبيقه على المستوى الشخصي. إن وجود ذلك الشيء الذي يمكن أن يسمى «عقل». كيان قومي اكتشف على يد مثقف عربي واحد على الأقل وبالتزامن مع انتشار استعمال هذا المفهوم في الغرب أو ربما قبل ذلك. فطه حسين (1889-1973م) -والذي يعتبر عميد الأدب العربي عند البعض- استعمل هذا المفهوم في كتابه المعنون «مستقبل الثقافة في مصر» والمطبوع في القاهرة عام 1938. وفي هذا الكتاب تساءل طه حسين حول «العقل» المصري: هل هو شرقي أم غربي من حيث تشكيل المفهوم والإدراك والفهم والمحاكمة العقلية؟ وكان جوابه على السؤال بأنه غربي انطلاقا من أن العقل المصري كان يشكل في السابق جزءا من العقل المتوسطي. ومن هنا فهو يعود إلى العقل الأوربي. وباختلاف مظهرات مصر خلال تاريخها وحتى عصرها الحديث. اتخذت مصر من أوربا نموذجا لها في كل مناحي الحياة المادية والروحية أيضا لتطبع كل هذه المناحي بطابع أوربي خالص. وكل الدلائل تشير إلى تطور مصر باتجاه اندماج كامل مع أوربا.

وثمة مصطلح آخر يكثر طه حسين من استخدامه. وهو يقترب بشدة من المفهوم الانكليزي للشخصية القومية. فلقد تحدث حول «الشخصية» المصرية. وأكد بأنها بقيت سليمة على الرغم من الهيمنة التي مارسها عليها العديد من الأمم القوية. لقد تشكلت شخصية مصر الخاصة بها من طبيعتها الجغرافية الثابتة بالإضافة إلى عوامل أخرى بقيت ثابتة أيضا. وبهذه الاعتبارات. لن يكون على مصر أن تخشى بأن يهدد التغريب شخصيتها أو هويتها وفرادتها القومية.

على المرء أن يتوقع مصادفة شعب شديد الحساسية لصفات الشخصية القومية كي لا يكون غريبا عليه ما يراه من الفروقات بين العناصر السكانية المختلفة في نفس البلد الواحد. وهنا يكمن جوهر القضية في الحقيقة. فمن المشتهر ما يحمله البدوي

العقل العربي

الفصل الثاني: المظهر الجماعي للعقل

من انطباع نحو الفلاح العربي. والذي يعتبر من وجهة نظر البدوي (عبد الأرض). كما يمتلك الحضري انطباعه العام حول الفلاح. فهو بنظره: أحمق. تابع. ووحش يمكن استئناسه لتحمل الأعباء. وهو كسول. جبان. ذليل. أبله. وشرير: أو باعتبارات تنطلق من نية «حسنة»: هادئ وديع فنوع بما لديه. سعيد. شكور. وعامل مجد ومخلص. ومن الجهة الأخرى. فإن الفلاح يعلم بأن الصبر أحد السمات الذاتية التي تجعل حياته قابلة لأن تطاق. لذلك فهو يشيد بهذه السمة من خلال العديد من الأمثال: «الصبر يهد الجبال». «لا خسارة مع الصبر». «الصبر طيب». «الصابر ينال الحرية». «الله مع الصابر» أما وجهة نظر الفلاح تجاه البدوي والحضري فنادرًا ما يعبر عنها لأنه يخاف منهما وتعتمد حياته على الثاني منهما (الإقطاعي). ورغم ذلك توجد أمثال لدى الفلاحين تسخر من البدوي. «كل شيء عند البدو صابون.»

وليست ملاحظة الاختلافات في الشخصية القومية بين بلد عربي وآخر بتطور جديد في العالم العربي. ففي الحقيقة. لاحظ المراقبون العرب الفطنون هذه الاختلافات قبل قرون من صياغة مفهوم النفسية القومية في الغرب. وثمة مثال تقليدي يعزوه المقريري إلى كعب الأخبار أحد صحابة النبي وهو عبارة عن ملاحظة صيغت بشكل قصصي لكن فحواها واضحة جدا. إذ ينقل عن كعب الأخبار أنه قال:

«إن الله تعالى لما خلق الأشياء جعل كل شيء لشيء. فقال العقل: أنا لاحق بالشام. فقالت الفتنة: وأنا معك. وقال الخصب: أنا لاحق بمصر. فقال الذل: وأنا معك. وقال الشقاء: أنا لاحق بالبادية. فقالت الصحة: وأنا معك..»

ثم يمضي المقريري على هذا المنوال فيقول:

«لما خلق الله الخلق خلق معهم عشرة أخلاق: الإيمان والحياء والنجدة والفتنة والكبر والنفاق والغنى والفقر والذل والشقاء. فقال الإيمان أنا لاحق باليمن. فقال الحياء: وأنا معك. وقالت النجدة: وأنا لاحق بالشام. فقالت الفتنة: وأنا معك.

العقل العربي

الفصل الثاني: المظهر الجماعي للعقل

وقال الكبر: أنا لاحق بالعراق. فقال النفاق: وأنا معك. وقال الغنى: أنا لاحق بمصر.
فقال الذل: وأنا معك. وقال الفقر: أنا لاحق بالبادية. فقال الشقاء: وأنا معك.»

وكما يظهر من تلك الاقتباسات التي أوردها المقرئزي، فإن المثقفين العرب في القرنين الرابع عشر والخامس عشر كانوا على دراية جيدة، ليس بوجود شخصية قومية عربية فحسب، وإنما بوجود اختلافات ذاتية بين الشعوب العربية التي تسكن بلدانا متعددة. وليومنا هذا، فإن هذا العامل الأخير يسبب إحدى المشكلات الرئيسية لأي شخص يحاول أن يرسم صورة للعقل العربي. إذ يبدو أنه لا وجود لشيء كهذا على المستوى المجرد. فدائما كان هنالك -على الأقل منذ أيام المقرئزي- عربي عراقي، وعربي شامي، وهكذا. وهذه الاختلافات الذاتية، قادت بدورها إلى خلق اتجاهات محلية في أجزاء العالم العربي، والتي كثيرا ما اصطدمت مع فكرة الوحدة العربية الشاملة المثالية.

وهكذا فإن إحدى المشكلات الرئيسية في التعامل مع العقل العربي، أو مع الشخصية القومية العربية، تكمن في أن العرب قد عاشوا -وعلى مدى آلاف السنين- على رقعة جغرافية شاسعة لا يجارها في مساحتها أية مجموعة عرقية، وإن هذا العامل التاريخي الجغرافي ينمو باتجاه التعبير عن نفسه في موضوعين متناغمين ضمن الذهنية العربية. موضوع الوحدة العربية الشاملة، وهي مسألة طموح. وموضوع القومية العربية المحلية الخاصة، وهي مسألة واقعية شخصية، وبقدر ما يتم أخذ الشخصية العربية النموذجية بعين الاعتبار، يمكن الافتراض -كفرضية عملية- بوجود نفس التفاعل ما بين صفات الشخصية العربية الشاملة العامة والشخصية العربية المحلية الخاصة كما يحصل في المجال الثقافي.